Al-Daleel

The Phenomenon of Extremism in Religion: Approaches and Treatments

Yahya Abdul-Hassan Hashem
PhD in Hadith Sciences, Al-Mustafa International University, Iraq.
E-mail: y.aldoukhi@aldaleel-inst.com

Summary

The article focuses on the phenomenon of religious extremism and its dangerous implications on Islam in general, and the Shia system in particular. It highlights the devastating effects it has on religion and Sharia, such as polytheism, Tafwid (man's absolute freedom in actions), extremism, excommunication (takfir), and more. Not only that, but there are also those who seek to sow division and discord among Muslims and confuse true beliefs, tearing apart their unity. This article aims to remove some of this intentional confusion and draw attention to the fact that the Shiite thought or the Twelver Shia system has taken the lead in treating this phenomenon, especially in what Imam al-Ridha (peace be on him) has contributed in this field.The article also offers approaches and treatments. By approaches, we mean the mentioning of some guidelines and criteria that Imam al-Ridha (peace be on him) has established as a theoretical foundation and a key to understanding and analyzing the reality of religious extremism. We analyze and approach to this kind of extremism so that it may be well understood, supporting it with practical applications and treatments. The method followed in this study is an inductive, analytical, applicable method.

Keywords: Extremism, scientific criteria, reason, Quranic references, fixed principles in religion.

Al-Daleel, 2023, Vol. 6, No. 3, PP.141-169
Received: 13/8/2023; Accepted: 20/9/2023
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)
CC BY NC

Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

ظاهرة الغلوّ في الدين... مقاربات ومعالجات

د. يحيى عبد الحسن هاشم
أستاذ مساعد في علوم الحديث المقارن، جامعة المصطفى العالمية، العراق. البريد الإلكتروني: y.aldoukhi@aldaleel-inst.com

الخلاصة

تركّز المقالة على ظاهرة الغلوّ وامتدادات هذه الظاهرة الخطيرة على الإسلام بشكل عامّ، ومنظومة التشيّع بشكل خاصّ؛ لما تخلّفه من آثار وخيمة على الدين والشريعة، ولعلّ أبرزها الشرك أو التفويض أو التطرّف أو التكفير أو غير ذلك، وليس هذا فقط، بل إنّ هناك من يسعى إلى بثّ الفرقة بين المسلمين والتشويش على العقائد الحقّة، وتمزيق وحدتهم، فجاءت هذه المقالة لإزالة بعض من هذا التشويش المتعمّد، ولفت النظر إلى أنّ الفكر أو المنظومة الشيعية الإمامية لها قصب السبق في معالجات هذه الظاهرة، ولا سيّما ما قدّمه الإمام الرضا عليه السلام في هذا المجال.

وقدّمت المقالة أيضًا مقارباتٍ وعلاجاتٍ، ونقصد بالمقاربة هو أنّنا نذكر بعض الضوابط والمعايير التي ذكرها الإمام الرضا عليه السلام لظاهرة الغلوّ في الدين كأساس نظري، وكمفتاح لقراءة الواقع الذي تفاعل معه وتصدّى له، ونحلّله ونقارب الفهم فيه، وكذلك نقرنه بتطبيقات عملية وعلاجية لهذا التأسيس، وأمّا المنهج المتّبع في هذا البحث فهو منهج استقرائي تحليلي تطبيقي.

الكلمات المفتاحية: الغلوّ، المعايير العلمية، العقل، العرض على القرآن، الأصول الثابتة في الدين.

مجلة الدليل، 2023 ، السنة السادسة، العدد الثالث، ص. 141 - 169
استلام: 2023/8/13 ، القبول: 2023/9/20
الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة

© المؤلف
CC BY NC

المقدّمة

من الحقائق الواضحة والثابتة والمطلقة - ولعلّها تكون بدهيةً - المرجعية الفكرية والعلمية لأهل البيت عليهم السلام[1]؛ وذلك لما تحمله من فكر نقي وصدق وفهم دقيق للواقع؛ وذلك لأنّهم عدل الكتاب (القرآن والوحي) فهم القرآن الناطق، ونعني به: أنّنا تارةً نلحظ القرآن بوجوده الكتبي اللفظي العلمي، وتارةً نلحظه بوجوده العيني الخارجي، فهم عليهم السلام القرآن العيني الخارجي، فيمثّلون القرآن الناطق؛ لأنّ علوم القرآن ومعارفه قد تحقّقت في نفوسهم الشريفة، فالإنسان الكامل (المعصوم) قرآن ممثَّل، كما وأنّه صراط مستقيم وميزان قسط، وكلّ ذلك على منهج الحقّ لا المجاز، فهو قرآن عيني تمثّلت فيه جميع المعارف تجاه القرآن العلمي اللفظي، ولا انفكاك في المعية بينهما، فالمعية بين القرآن والعترة تكون حقيقيةً، وبما أنّ القرآن كلام الهي مصون عن تعرّض الشيطان من الزيادة والنقص أو التصحيف والتحريف: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [سورة فصّلت: 24]، فكذلك المعصوم: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» [الكليني، أصول الكافي، ج 2، ص 514]، إذن هناك قرآن علمي (لفظي)، وقرآن عيني ناطق (المعصوم) وكلّ واحد منهما يهتف الناس إلى صاحبه. [انظر: جوادي آملي، عليّ بن موسى الرضا عليه السلام والقرآن الحكيم، ص 13 و23]

إذن إذا كانوا كذلك فمن الطبيعي أن يكونوا الترجمان للقرآن يستنطقوا آياته ويفسّروها؛ لأنّ القرآن «خطٌّ مستورٌ بين الدفّتين لا ينطق بلسان، ولا بدّ له من ترجمان ينطق عنه الرجال» [عبدة، نهج البلاغة، ج 2، ص 5]، أو كما يقول الإمام علي عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه» [المصدر السابق، ج 2، ص 45]. فهم المخبرون له بالحقّ والصدق؛ لأنّ الله عزّ وجلّ عصمهم من الزلل والخطإ[2]. فمعرفة القرآن «على وجهه وحقيقته لا تكون إلّا

1- قال السيّد الطباطبائي: «ثمّ التأمّل الكافي في الروايات المتواترة الواردة من طرق الفريقين عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المتضمّنة لإرجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من أصول معارف الدين وفروعها وبيان حقائقه إلى أهل البيت عليهم السلام - كحديث الثقلين وحديث السفينة وغيرهما - لا يدع ريبًا في أنّ إيجاب مودّتهم وجعلها أجرًا للرسالة إنّما كان ذريعةً إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعية العلمية» [الطباطبائي، الميزان، ج 81، ص 64].

2- كما نجد تطبيقات ذلك في آيات كثيرة، منها: آية التطهير وغيرها الكثير من النصوص كحديث الثقلين، ويمكن للقارئ مراجعة هذا الأمر البدهي في تفسير الميزان، وأسجّل هنا تعليقًا للسيّد الطباطبائي على آية التطهير إذ قال: «فمن المتعيّن حمل إذهاب الرجس في الآية، على العصمة، ويكون المراد بالتطهير في قوله: ﴿ويطهّركم تطهيرًا﴾ - وقد أكّد بالمصدر - إزالةَ أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله، ومن المعلوم أنّ

بتوسّطٍ من عنده علم الكتاب، وهو الإمام عليٌّ عليه السلام، وهو القائل: "وما نزلت آية من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا وأملاها عليّ، فكتبتها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها"» [مغنية، في ظلال نهج البلاغة، ج 2، ص 914].

بعد هذه المقدّمة المهمّة والمختصرة نقول: إنّ من المعلوم والجليّ أنّ "عالم آل محمد" الإمام الرضا عليه السلام كما هي صفته في النصوص الروائية [الأربلي، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، ج 3، ص 11]، يتوارث هذا العلم، وهذا ما أكّدته النصوص المتكاثرة والمشهورة، فقد ورد في النصّ: «لو كنّا نفتي الناس برأينا وهوانا، لكنّا من الهالكين، ولكنّها آثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصول علم نتوارثها، كابر عن كابر، نكنزها كما يكنز الناس ذهبهم وفضّتهم» [البروجردي، جامع احاديث، ج 1، ص 031] وبالتالي فإنّ الاستحقاق الطبيعي والبدهي أن يكون عليه السلام الامتداد الرسالي لمنهج النبوّة، وهو الحارس الأمين والصادق لكلّ المنظومة القيمية والدينية بشكل عامّ، والشيعية بشكل خاصّ.

ونعتقد أنّ هذه الحراسة والأمانة للدين تقتضي أنّ الإمام عليه السلام يقف موقف المتشدّد والمعالج لمن يريد أن يستغلّ الدين ويشوّه معالمه النقيّة الصافية، ولا سيّما المنظومة الفكرية الصادرة عنهم عليهم السلام.

ولعلّ ظاهرة الغلوّ التي طغت واستفحلت في عصره، هي الأشدّ خطرًا على الدين؛ وذلك لأنّ الغلوّ قد يسري الى مبادئ الإسلام الأساسية (التوحيد والنبوّة والإمامة)، ممّا قد يؤدّي إلى الإلحاد أو التطرّف أو التكفير أو ما شابه ذلك.

ومن هنا ونتيجةً لما تقدّم: فمن الطبيعي أن نجد في معطيات كلامه عليه السلام المعايير التي تضبط النصوص الحديثية - التي قد يشوبها التحريف أو التزوير والدسّ والتي تؤدّي إلى الغلوّ - وفق منهج وسطي ومعتدل، يعطي للعقل الأولوية في فهم النصوص وكذلك العرض على الكتاب والسنّة القطعية الصحيحة أو ميزان الثوابت والمبادئ الأساسية في الدين؛ ولهذه الأسباب مجتمعةً جاءت هذه المقالة لبيان الأمور التالية:

أوّلًا: معنى الغلوّ بوصفه اصطلاحًا علميًّا وقرآنيًّا.

ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحقّ، فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحقّ في الاعتقاد والعمل، ويكون المراد بالإرادة أيضًا غير الإرادة التشريعية؛ لما عرفت أنّ الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكاليف إلى المكلّف لا تلائم المقام أصلًا» [الطباطبائي، محمدحسين، الميزان، ج 61، ص 313].

ثانيًا: ظاهرة الغلوّ في نصوص الشريعة قبل الإمام الرضا عليه السلام.

ثالثًا: تشخيص الإمام الرضا عليه السلام لظاهرة الغلوّ.

رابعًا: المعايير التي وضعها الإمام الرضا عليه السلام كمعالجات لهذه الظاهرة.

خامسًا: موقف علماء المدرسة الشيعية من الغلاة.

ما المراد من الغلوّ؟

الغلوّ في اللغة: تجاوز الحدّ وهو مأخوذ من غلا في الأمر غلوًّا، ومن تشدّد في الدين وجاوز الحدّ وأفرط فيه فهو غالٍ، قال ابن منظور: أي التشدّد فيه (الدين) ومجاوزة الحدّ كالحديث: "إنّ هذا الدين متينٌ فارفق فيه". [انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 51، ص 231؛ ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج 6 ، ص 75؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 4، ص 883]

فالغلوّ هو الارتفاع ومجاوزة القدر، وكلٌّ بحسبه، يقال غلا السعر يغلو غلاءً، وذلك ارتفاعه، وغلا الرجل في الأمر غلوًّا إذا جاوز حدّه، وغلا بسهمه غلوًّا إذا رمى به سهمًا أقصى غاية.

الغلوّ في الاصطلاح: وهو قريب من المعنى اللغوي، بمعنى: تجاوز الحدّ والإفراط فيه، ولا سيّما في الدين والفكر والعقيدة. قال الحسن البصري: «سنّتكم - والله الذي لا إله إلّا هو - بينهما: بين الغالي والجافي» [الدارمي، سنن الدارمي، ج 1، ص 27].

قال الشهرستاني: «الغالية هم الذين غلوا في حقّ أئمتهم حتّى أخرجوهم من حدود الخليقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربّما شبّهوا واحدًا من الأئمّة بالإله، وربما شبهوا الاله بالخلق، وهم على طرفي الغلوّ والتقصير، وإنّما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى» [الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 371].

وقال العلّامة المجلسي: «اعلم أنّ الغلوّ في النبيّ والأئمّة عليهم السلام إنّما يكون بالقول بألوهيتهم أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبودية أو في الخلق والرزق، أو أنّ الله تعالى حلّ فيهم أو اتّحد بهم، أو أنّهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى، أو بالقول في الأئمّة عليهم السلام إنّهم كانوا أنبياء، أو القول بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض، أو القول بأنّ معرفتهم تغني عن جميع الطاعات، ولا تكليف معها بترك المعاصي، والقول بكلٍّ منها إلحاد وكفر وخروج عن الدين كما دلّت عليه الأدلّة العقلية والآيات والأخبار» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 643].

القرآن الكريم والغلوّ

قد وردت مفردة الغلوّ في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ [سورة النساء: 171]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة: 77].

وواضح من هذين النصّين الكريمين أنّ هناك تشديدًا وتركيزًا وتأكيدًا على عدم الغلوّ في الدين، ونفي الربوبية لغير الله تبارك وتعالى، قال العلّامة الطباطبائي في سياق كلماته حول النصّ الثاني من الآية المباركة: «وتقييد الغلوّ في الدين بغير الحقّ - ولا يكون الغلوّ إلّا كذلك - إنّما هو للتأكيد وتذكير لازم المعنى مع ملزومه؛ لئلّا يذهل عنه السامع، وقد ذهل حين غلا أو كان كالذاهل» [الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 6، ص 77].

ولذا نجد أن هناك بعض المفسرين من حدّد الغلوّ بأنّه: تجاوز الحدّ المألوف، مشتقٌّ من غَلْوة السهم، وهي منتهى اندفاعه، واستعير للزيادة على المطلوب من المعقول أو المشروع في المعتقدات والإدراكات والأفعال، فالغلوّ في الدين، هو أن يُظهر المتديّن ما يفوت الحدّ الذي حدّد له الدين. [انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 4، ص 033]

ظاهرة الغلوّ في النصوص الدينية قبل الإمام الرضا عليه السلام

إنّ هذه الظاهرة ليست وليدة عصر الإمام الرضا عليه السلام، كما نلمس ذلك في النصوص المتقدّمة على عصره، فقد ورد عن الرسول الأكرم والإمام عليٍّ والصادق عليهما السلام نصوصٌ كانت متشدّدةً تجاه الغلاة، بل نجد مواقف جريئةً بحقّهم؛ لأنّ فعلهم يمثل الخروج عن الدين الحنيف وتحريف معالمه التي رسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل إنّ ذلك يعبّر عن هتك حريم الرسالة الخالدة، وما عاناه الرسول من بناء وتشييد لأركانها؛ لذلك كان يؤكّد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون هناك اعتدال وفهم في الحبّ لهم، وفي فهم مقاصد ومداليل كلامهم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أحبّوا أهل بيت نبيّكم حبًّا مقتصدًا ولا تغلوا ولا تفرقوا ولا تقولوا ما لا نقول» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 962]. وقال أيضًا: «صنفان من أمّتي لا نصيب لهما في الإسلام: الغلاة والقدرية» [الصدوق، الخصال، ص 27]. وقال: «رجلان لا تنالهما شفاعتي: صاحب سلطان عسوف غشوم، وغالٍ في الدين مارقٌ» [المصدر السابق، ص 36]. وأيضًا ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم في خطاب له لعليٍّ عليه السلام: «يا عليّ، إنّ فيك مثلًا من عيسى بن مريم، إنّ اليهود أبغضوه حتّى بهتوه، وإنّ النصارى أحبّوه

حتّى جعلوه إلهًا، ويهلك فيك رجلان: محبٌّ مطرٍ - من الإطراء أي الغلوّ - ومبغضٌ مفترٍ» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 53، ص 223].

ففي هذه النصوص النبوية الصريحة نلمح حالة التشدّد الكبيرة والتحذير من هذه الظاهرة؛ إذ نجد أنّها تؤشّر عن مروق على الدين، وعدم نوال شفاعة الرسول الأكرم ﷺ.

وكذلك نجد البيانات والنصوص الواردة عن عليٍّ عليه السلام إذ قال: «يهلك فيّ محبٌّ مطرٍ يقرظني بما ليس فيّ، ومبغضٌ مفترٍ، يحمله شنآني على أن يبهتني. ألا وإنّي لستُ نبيًّا ولا يوحى إليّ، ولكن أعمل بكتاب الله ما استطعت، فما أمرتكم به من طاعةٍ فحقٌّ عليكم طاعتي فيما أحببتم وفيما كرهتم، وما أمرتكم به أو غيري من معصية الله فلا طاعة في المعصية، الطاعة في المعروف الطاعة في المعروف! [قالها] ثلاثًا» [المصدر السابق، ج 42، ص 263]. وأيضًا ورد النصّ عن الإمام الصادق عليه السلام - وكان في سياق كلامه عن ابن سبإٍ الذي ادّعى الربوبيّة في أمير المؤمنين - قال: «وكان والله أمير المؤمنين عليه السلام عبدًا لله طائعًا، الويل لمن كذب علينا، وإنّ قومًا يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، نبرأ إلى الله منهم» [المصدر السابق، ج 52، ص 682].

وقال عليه السلام أيضًا: «يا معشر الشيعة، شيعة آل محمّد، كونوا النمرقة الوسطى يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي. فقال له رجل من الأنصار يقال له سعد: جُعلت فداك، ما الغالي؟ قال: قومٌ يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس أولئك منا ولسنا منهم» [الكليني، الكافي، ج 2، ص 57].

وروي عنه عليه السلام أنّه قال: «لعن الله المغيرة بن سعيد، إنّه كان يكذب على أبي، فأذاقه الله حرّ الحديد، لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 792].

وسأله بعض أصحابه أيضًا كسدير الصيرفي: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قومًا يزعمون أنّكم آلهة، يتلون بذلك علينا قرآنًا: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ**﴾! فقال: يا سدير، سمعي وبصري وبشري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براءٌ وبرئ الله منهم، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي والله لا يجمعني الله وإيّاهم يوم القيامة إلّا وهو ساخط عليهم ...، قال: قلت: فما أنتم؟ قال نحن خزّان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن قوم معصومون، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا، ونهى عن معصيتنا، نحن الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض» [المصدر السابق، ج 52، ص 892].

فلـو ندقّـق ونتأمّـل في منطـوق النـصّ الأخـير، فهنـاك مـن يفـسّر القـرآن بالباطـن، وبـلا فهـم صحيـح للقـرآن ولمحكماتـه ومتشـابهاته، ولعلّـه لشـدّة هـذا الأمـر وعظمتـه تـبرّأ منهـم الإمـام الصـادق عليه السلام بـكلّ وجـوده بشـعره ولحمـه وبـصره و... وهـذا النهـج نفسـه نجـده في كلمـات الإمـام الرضـا عليه السلام كمـا سـيأتي مفصّـلًا.

وقـد يسـأل أو يسـتفهم سـائل عـن السـبب والعلّـة لذلـك؟ الجـواب: لأنّ خطـر هـؤلاء كبـير على الديـن برمّتـه، وقـد يؤسّسـون لمنظومـة دينيـة مبتدعـة لا علاقـة لهـا بـشرع الله تعـالى؛ لذلـك نجـد الإمـام عليه السلام - في ذيـل النـصّ الأخـير - مضطـرًّا للتعريـف بماهيـة شـخصياتهم باعتـدال ووسـطية، وأنّـه إمـام معصـوم فـرض الله تعـالى طاعتـه على النـاس، وأهـل البيـت هـم الحجّـة على العبـاد، والعصمـة لا تعـني أن تصبـغ عليهـم صفـة الربوبيـة المختصـة بـالله جلّ جلاله.

إذن نفهـم مـن حصيلـة هـذه النصـوص أنّ هنـاك ظاهـرةً منبـوذةً مـن الأئمّـة عليهم السلام، وقـد أعطوهـا أولويـةً في النـهي عنهـا، بـل والوعيـد والويـل لمـن يتلبّـس بهـذه الصفـة أي الغلـوّ؛ لأنّهـم في الحقيقة يكـذّبـون ويبدّعـون في الديـن، بـل ويشركـون بـالله جلّ جلاله، إذ يجعلـون معـه إلهًـا وخالقًـا يـرزق ويميـت ويُحـيي! وأمثـال هـذه السفاسـف الـتي قـد تهـدم الإسـلام ومنظومتـه القيميـة السـامية والنبيلـة.

تشخيص الإمام الرضا عليه السلام لظاهرة الغلوّ وعلاجها

بعـد التتبّـع لمنظومـة الأحاديـث والنصـوص الـواردة عـن الإمـام الرضـا عليه السلام، نجـد أنّ الوضـع والدسّ في الأخبـار المرويّـة عنهـم عليهم السلام لا زالـت في الكتـب ويتداولهـا النـاس، وأنّ ظاهـرة الغلـوّ نتيجـةً طبيعيـة لهـذا الأمـر، وقـد انتـشرت في الأوسـاط الاجتماعيـة، وتأثيرهـا قـد يلحـق ضررًا بالديـن، لا سـيّما وأنّ امتـدادات ذلـك الغلـوّ لـم تتوقّـف، فـكان للفرقـة الخطابيـة[3] و(المغيريـة)[4]

3. وهـي مـن أبـرز الفـرق التـي ظهـرت في عهـد الإمـام الصـادق عليه السلام، وتنتسـب إلى أبي الخطّـاب محمّـد بـن مقـلاص بـن أبي زينـب الأسـدي، وقـد تبنّـى هـذا الرجـل فكـرة مفادهـا أنّ نبـيّ اللـه عيـسى عليه السلام لم يقتـل أو يصلـب، وإنّمـا شـبّه للنـاس ذلـك، وعـين هـذا ينطبـق عـلى الإمـام الصـادق عليه السلام. وكان يزعـم أنّ الأئمّـة عليهم السلام أنبيـاء ثـمّ آلهـة، والآلهـة نـور مـن النبـوّة ونـور مـن الإمامـة، ولا يخلـو العـالم مـن هـذه الأنـوار، وأنّ الصـادق عليه السلام هـو اللـه تعـالى! وليـس المحسـوس الـذي يرونـه. وكلّ هـذه المرويّـات قـد عرضـت عـلى الإمـام الصـادق عليه السلام فكذّبهـا وأنكرهـا بشـدّة. [انظـر: غفـاري، دراسـات في علـم الدرايـة، ص 144].

4. نسـبةً إلى المغـيرة بـن سـعيد الكـوفي، وهـؤلاء يعتقـدون أنّ اللـه تعـالى جسـم عـلى صـورة رجـل مـن نـور، عـلى رأسـه تـاج مـن نـور، وقلبـه منبـع الحكمـة، وقيـل: إنّـه يقـول بإمامـة محمّـد بـن عبـد اللـه بـن الحسـن بعـد الباقـر، وإنّ محمـد

وغيرهما الدور الكبير في زرع مفاهيم مغلوطة لا تمتّ إلى الدين بصلة، وليس ذلك فقط، بل عانى الإمام عليه السلام في عصره من فرقة الواقفة التي عصفت بالشيعة، وهؤلاء التبس عليهم الأمر وشبّه عليهم؛ إذ قالوا إنّ الإمامة توقّفت على الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وإن الرضا عليه السلام ومن بعده ليسوا بأئمّة، ومن هؤلاء عليّ بن حمزة الواقفي التي سمّيت الفرقة باسمه ومحمّد بن إسحاق التغلبي وموسى بن بكر وعبد الرحمن بن الحجّاج وغيرهم.

فهنا لا بدّ من تشخيص موضوعات هذه الظاهرة وكشف ملابساتها ووضع الحلول والمعالجات المناسبة لها، ولا سيّما القول بربوبية الأئمّة أو نبوّتهم أو عدم القول بإمامتهم، أو التفويض والجبر أو التناسخ أو غير ذلك.

وهذا ما نجده جليًّا في بعض كلماته عليه السلام، حينما خاطب أحد أصحابه، بقوله: «يا بن أبي محمود، إنّ مخالفينا وضعوا أخبارًا في فضائلنا، وجعلوها على ثلاثة أقسام أحدها الغلوّ ... فإذا سمع الناس الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا» [عطاردي، مسند الإمام الرضا عليه السلام، ج 2، ص 844]. والوضع في حقيقته هو الكذب الصريح، لأنّهم عليهم السلام لم يقولوا ذلك، بل قوّلوهم بما لم يقولوا. وهذا ما يكشفه هذا النصّ الجليّ والواضح.

«عن يونس قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: يا يونس، أما ترى إلى محمّد بن الفرات، وما يكذب عليّ؟ فقلت: أبعده الله وأسحقه وأشقاه، فقال: قد فعل الله ذلك به، أذاقه الله حرّ الحديد، كما أذاق من كان قبله ممّن كذب علينا! يا يونس، إنّما قلت ذلك لتحذّر عنه أصحابي وتأمرهم بلعنه، والبراءة منه، فإنّ الله يبرأ منه» [المصدر السابق]. هنا يحذّر الإمام من هؤلاء الرواة بشكل كبير؛ لذلك نجد الإمام الرضا عليه السلام يكرّر قوله: «والله ما أحد يكذب علينا إلّا ويذيقه الله حرّ الحديد» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 711]. فكان عليه السلام يوصي الرواة الثقات من أمثال الحسين بن خالد وغيره، بقوله: «فليقولوا في آبائي الأئمّة إنّهم لم يقولوا من ذلك شيئًا، وإنّما روى ذلك عليهم» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 711].

وهكذا قوله عليه السلام: «من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر مشرك، ونحن منه برآء في الدنيا والآخرة. يا بن خالد، إنّما وضع الأخبار عنّا في التشبيه والجبر الغلاة، صغّروا عظمة الله تعالى» [المصدر السابق، ج 1، ص 031].

وهكذا قول جماعة من الواقفة فيهم علي بن أبي حمزة البطائني ومحمّد بن إسحاق بن

بن عبد الله حيٌّ لا يموت. [المصدر السابق، ص 148]

عمار والحسين بن مهران والحسن أبي سعيد المكاري، دخلوا على الإمام الرضا عليه السلام فقال له عليّ بن أبي حمزة: «جعلت فداك أخبرنا عن أبيك عليه السلام ما حاله؟ فقال له عليه السلام: إنّه قد مضى. فقال له: فإلى من عهد؟ فقال عليه السلام: إليّ. فقال له: إنّك لتقول قولًا ما قاله أحد من آبائك. قال عليه السلام: لكن قد قاله خير آبائي وأفضلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 2، ص 132].

ونحن إنّما نذكر هذه النصوص المتكثّرة عنه عليه السلام؛ لأنّها تكشف لنا عن ظاهرة متفشية بشكل كبير، وإنّها قد تؤدّي الى تكفير الشيعة، بل وقتلهم أو المساس بعقائدهم الحقّة.

ومن هنا لا بدّ لنا أن نبحث عن معالجات ومعايير وموازين علمية وضعها الإمام عليه السلام، للحدّ من التلاعب بالنصوص الحديثية التي تُروى عنهم عليهم السلام.

ضبط النصوص الحديثية

لعلّ إحدى الأسباب التي تؤدّي إلى ظاهرة الغلوّ، والتي شخّصها الإمام عليه السلام، هو عدم فهم النصوص وضبطها وفق موازين ومعايير موضوعية دقيقة لا بدّ من اتّباعها، وهنا نسجّل بعض هذه المعايير التي رُصدت من التراث الحديثي المرويّ عن الإمام الرضا عليه السلام، وكذلك نذكر تطبيقاتها من النصوص الروائية نفسها:

1- معيارية العقل في فهم النصوص

لا نغالي إذا قلنا إنّ النهج العقلي هو البارز في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وفكرهم، فالعقل هو الميزان لفهم المعاني الواردة في النصوص الروائية والدينية وإدراكها، وإنّ دوره ليس كما يفهمه بعضهم، إسقاط لحكم عقلي بشري على كلام الله تعالى، بل إنّ العقل يشكّل قرينةً عقلائيةً في فهم النصّ، وإن أحكامه البدهية القطعية تعطيه الحاكمية والحجّية في بعض الأحيان. وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدور المهمّ لهذه الملكة بقوله: «لكلّ شيءٍ آلةٌ وعدّةٌ، وآلة المؤمن وعدّته العقل، ولكلّ شيءٍ مطيّةٌ، ومطيّة المرء العقل، ولكلّ شيء غاية، وغاية العبادة العقل، ولكلّ قوم راعٍ، وراعي العابدين العقل، ولكلّ تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكلّ خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكلّ سفر فسطاط يلجؤون إليه، وفسطاط المسلمين العقل» [النوري، الطبرسي، مستدرك الوسائل، ج 11، ص 602]. وقوله أيضًا: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له» [الري شهري، ميزان الحكمة، ج 3، ص 3302]. وفي فهمنا واستنطاقنا لهذه النصوص أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أعطى للعقل دورًا مركزيًّا وجعلة آلةً وأداةً ومصدرًا في كلّ مناحي الحياة الفكرية

والمعنوية، وأن يجتهد الإنسان فيها، فالعقل يفتح للإنسان آفاقًا رحبةً وواسعةً؛ لكي يقع على المقاصد والمعاني التي يريد أن يصل إليها بصورة سليمة ومطابقة للواقع.

ولذا كان العقل هو المناط للتكليف ويجازى الإنسان على إدراكه وعقله، قال ﷺ: «إذا بلغكم عن رجل حسن حاله، فانظروا في حسن عقله، فإنّما يجازى بعقله» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 39].

ولا غرابة أن نجد الإمام الرضا عليه السلام يسير وفق هذه المنظومة المعرفية، فأعطى للعقل أهمّيةً بالغةً، إذ جعله قرينًا وصديقًا وخلًّا، وهذا ما نجده في قوله: «صديق كلّ أمرئ عقله وعدوه جهله» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 11].

ولعلّ سائلًا يستفهم عن سبب هذه الخلّة؟

ولعلّ الجواب هو: أنّ العقل يمثّل البوصلة والنافذة لتحديد واقعية الأمور وتشخيصها كما هي، فهو الذي يحدّد ويرسم لك معالم طريقك، وبعكس ذلك الجهل الذي يُحجّم العقل ويمنع من وضوح الرؤية الصحيحة للأشياء، ومن البدهي أنّه إذا كانت الرؤية مشوّشةً فسوف يكون المسار معكوسًا وليس مستقيمًا، فيقود الإنسان الى مزالق الجهل والشكّ والريبة في الدين، ومن ثمّ تكون النتيجة هي الضلال أو السير على غير هدًى؛ لذلك جعله عليه السلام القرين والخلّ والصديق، فكما أنّ الصديق هو الأقرب إلى روح الإنسان، فهكذا العقل لكي يسدّده ويوصله إلى برّ الأمان.

ووفقًا لما تقدّم نجد نصوصًا رويت عنه عليه السلام، جعلت العقل هو المنقذ للإنسان من الضلال، فقال: «ما استودع الله عبدًا عقلًا إلّا استنقذه به يومًا» [الطوسي، الأمالي، ص 65]. وهل يوجد استنقاذ أكثر من أن يقع الإنسان في مزلّات العقيدة، التي قد يكون منحرفًا عن فهمها فهمًا صحيحًا مطابقًا للشرع الحنيف، فيقع في الغلوّ أو التشدّد أو التطرّف، إذن فالعقل هو الميزان والمعيار، وهو الذي يدلّ الناس على الحقيقة وعلى فهم واقع الدين.

العقل الحجّة على الخلق

لذلك كان العقل هو الحجّة على الإنسان، وهذا ما نجده في سؤال ابن السكّيت للإمام الرضا عليه السلام، بقوله: «والله ما رأيت مثلك قطّ، فما الحجّة على الخلق اليوم؟ فأجابه الإمام عليه السلام: العقل، يُعرف به الصادق على الله فيصدقه والكاذب على الله فيكذبه. وطفق ابن السكيت قائلًا: هذا هو والله الجواب» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 42 و52]. لذا كان يقول عليه السلام: «بالعقول يعتقد

التصديق بالله» [المصدر السابق، ص 69].

نماذج وتطبيقات للتنبيهات العقلية

النصّ الروائي

ومن التطبيقات التي نجد فيها التنبيهات العقلية من الإمام الرضا عليه السلام لفهم النصوص بصورة معتدلة وبعيدة عن ظاهرة الغلوّ، وذلك حينما سُئل من بعض أصحابه عليه السلام:

«بأبي أنت وأمّي يا بن رسول الله! فإنّ معي من ينتحل موالاتكم ويزعم أنّ هذه كلّها من صفات علي عليه السلام، وأنّه هو الله ربّ العالمين؟! قال: فلمّا سمعها الرضا عليه السلام، ارتعدت فرائصه وتصبّب عرقًا وقال: سبحان الله عمّا يشركون، سبحانه عمّا يقول الكافرون علوًّا كبيرًا، أوليس علي كان آكلًا في الآكلين، وشاربًا في الشاربين، وناكحًا في الناكحين، ومحدثًا في المحدثين. وكان مع ذلك مصلّيًا خاضعًا، بين يدي الله ذليلًا، وإليه أوّاهًا منيبًا، أفمن هذه صفته يكون إلهًا؟! فإن كان هذا إلهًا فليس منكم أحد إلّا وهو إله لمشاركته له في هذه الصفات الدالّات على حدث (حدوث) كلّ موصوف بها» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 1، ص 272].

فهم منطوق النصّ

عندما نتأمّل في هذا النصّ، فهنا الإمام عليه السلام يخاطب العقول، بعد أن وجد أنّ ظاهرة الغلوّ قد أدّت إلى مزالق خطيرة، وهي تأليههم، وهذا مساس بمبدإ التوحيد، إذ نجد الإمام يتصبّب عرقًا لهذا الأمر. وارتعدت فرائصه، وكأنّه يقول عليه السلام أين عقولكم؟

فبعد أن سبّح الله تعالى ونزّهه استخدم أسلوب النقض معهم، بقوله: بأنّ عليًّا عليه السلام كان يأكل ويشرب ويتكلّم، وهذه هي الطبيعة البشرية التي تجمعكم به، فهو مثلكم في هذه الصفات سوى أنّه أكمل منكم علمًا وأرجح فهمًا، فأعطاه الله مقامًا آخر يختلف عن مقامكم، ولكن يبقى في دائرة العبودية لله جلّ جلاله، فهو عبد من عبيده يصلّي بين يدي الله تعالى ويطيعه بإخلاص. ثمّ يخاطبهم بعد هذه المقدّمة بدليل عقلي، وفيه إشارة إلى دليل الحدوث.

لو فرضتم أنّ هذا الإنسان إلهًا، فهذا يسري عليكم أيضًا قهرًا، وتكونوا جميعًا آلهةً؛ لأنّكم مشاركون لعليٍّ عليه السلام في هذه الصفة (أي الطبيعة البشرية، كالأكل والشرب والكلام و...)، وهذه الصفات تدلّ على حدوث من يتّصف بها، والحادث يحتاج إلى محدث يحدثه، فكيف تجعلون عليًّا الإنسان إلهًا؟!

وكثيًرا ما نجد الإمام عليه السلام ينبّه لهذا الدليل حينما سُئل: «يا بن رسول الله، ما الدليل على حدوث العالم؟ قال: أنت لم تكن ثمّ كنت، وقد علمت أنّك لم تكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلك» [المصدر السابق، ج 1، ص 321].

فهنا استدلّ الإمام عليه السلام بدليل الحدوث، أي أنّ الإنسان لم يكن مخلوقًا ثمّ أحدثه وأوجده؛ ورجوع هذا الدليل إلى مبدإٍ عقليٍّ وهو عدم التناقض، فالإنسان موجود ووجوده ليس عين ذاته وهذا أمر بدهي؛ لأنّه لو كان وجود الإنسان عين ذاته لم يكن معدومًا قبل ذلك، فلو فرضنا أنّه معدوم، فيلزم اجتماع النقيضين (أي الجمع بين الوجود الذي عين ذاته وعدم ذلك الموجود) واجتماع النقيضين محال.

نص روائي آخر

وأيضًا كان جوابه عليه السلام عن بعض المعجزات أو الكرامات من الأئمّة عليهم السلام والتي كانت السبب في غلوّ الغلاة. قال عليه السلام: «لمّا ظهر منه ـ الفقر والفاقة ـ دلّ على أنّ من هذه صفاته وشاركه فيها الضعفاء المحتاجون لا تكون المعجزات فعله، فعلم بهذا أنّ الذي أظهره من المعجزات إنّما كانت فعل القادر الذي لا يشبه المخلوقين، لا فعل المحدث المحتاج المشارك للضعفاء في صفات الضعف» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 672].

فهم النصّ

وفي هذا النصّ إشارة دليل الفقر والحدوث الذي يحتاج فيه الإنسان إلى العلّة والسبب الأوّل في وجوده الذي يمثّل الضعف والافتقار، فالمعجزات هي فعل القادر الذي لا يشبه المخلوقين الذين صفتهم الضعف والحاجة إلى غيرهم الذي يكون هو المقوّم لوجودهم.

لذلك كان عليه السلام يقول: عندما سأله المأمون ذات يوم عن الغلاة: «حدّثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد بن عليّ، عن أبيه عليّ بن الحسين، عن أبيه الحسين بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليهما السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا ترفعوني فوق حقّي، فإنّ الله تبارك وتعالى اتّخذني عبدًا قبل أن يتّخذني نبيًّا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللهِ**﴾» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 1، ص 712].

وهنا أيضًا يؤكّد عليه السلام إيقاظ العقل وتفعيله، فيخاطب عقولهم أيضًا: إنّ من كان عبدًا لله لا يمكن أن يكون خالقًا ومعبودًا، فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو بشر إنسان، اتّخذه الله عبدًا له جلّ جلاله

قبل أن يكلّفه بمهامّ الرسالة والنبوّة والحكم، فكيف يقول للناس اعبدوني من دون الله، فهذا خلاف العقل والفطرة السليمة؛ لذلك كان يقول ﵇: «إنّ من تجاوز بأمير المؤمنين ﵇ العبودية فهو من المغضوب عليهم ومن الضالّين. فقام إليه رجل فقال: يا بن رسول الله صف لنا ربّك! فإنّ من قبلنا قد اختلفوا علينا، فوصفه الرضا ﵇ أحسن وصف، ومجّده ونزّهه عمّا لا يليق به تعالى» [الطبرسي، الاحتجاج، ج 2، ص 332].

وفي هذا النصّ أيضًا إشارةٌ إلى التأويل للنصوص وتنزيهه لله ﷻ وتمجيده بما يتواءم مع العقل، وبما يليق بالله تعالى بلا تشبيه أو تمثيل أو تجسيم.

وفي نصّ آخر أيضًا نلمس الألم والحسرة منه ﵇، لمن يستبدّ بالرأي، ولكن بخلاف ما هو الحقّ والصواب أو بغير سبيل وطريق الواجب، وبذلك استصغروا قدر الله تعالى وتهاونوا بعظيم شأنه وغلوا فيه، فقال مخاطبًا لهم وبغلظة وشدّة:

«إنّ هؤلاء الضلّال الكفرة ما أتوا إلّا من قبل جهلهم بمقدار أنفسهم، حتّى اشتدّ إعجابهم وكثر تعظيمهم لما يكون منها، فاستبدّوا بآرائهم الفاسدة واقتصروا على عقولهم المسلوك بها غير سبيل الواجب، حتّى استصغروا قدر الله، واحتقروا أمره، وتهاونوا بعظيم شأنه؛ إذ لم يعلموا أنّه القادر بنفسه الغنيّ بذاته التي ليست قدرته مستعارةً ولا غناه مستفادًا، والذي من شاء أفقره، ومن شاء أغناه، ومن شاء أعجزه بعد القدرة، وأفقره بعد الغنى» [المصدر السابق، ج 2، ص 232].

وكان يردّد ﵇ في دعائه: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللّهمّ لك الحقّ ومنك الرزق، اللّهمّ أنت خالقنا وخالق آبائنا الأوّلين وآبائنا الآخرين، اللّهمّ لا تليق الربوبيّة إلّا بك، ولا تصلح الإلهيّة إلّا لك، اللّهمّ إنّا عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، اللّهمّ من زعم أنّنا أربابٌ فنحن منه برآء، اللّهمّ إنّا لم ندعهم إلى ما يزعمون فلا تؤاخذنا بما يقولون» [الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، ص 89 و99].

إذن اتّضح من خلال هذه النصوص أنّ لمعيارية العقل الدور المهمّ والبارز في فهم النصوص التي قد تلتبس على بعضهم، ممّن قد يجمد على ظاهرها ولا يفهم مغزاها ومعناها الواقعي، وبذلك يقعون فريسة للجهل والحمق أو أنّ دين بعضهم لا يتعدّى جناح البعوضة، والتي هي الأرجح كفّةً من تفكيره الذي لا يتعدّى الظاهر، أو لعلّ التقليد الأعمى هو النهج الذي يسيرون عليه في فهم الدين، ممّا قد يجعلهم متشدّدين ومتعصّبين أو لعلّ بعضهم يكفّر

الآخر بلا مبرّر سوى الغلوّ، ومردّ كلّ ذلك إلى الجهل وعدم التعقّل والتأمّل في النظر إلى النصوص الدينية.

وهذا الجهل والحمق السائد آنذاك للأسف نجده حاضرًا في هذا العصر أيضًا، والذي قد نبّه له الإمام المهديّ المنتظر عليه السلام حينما خاطب الغلاة، بقوله: «وأنا وجميع آبائي من الأوّلين ومن الآخرين محمّد رسول الله، وعليّ بن أبي طالب، وغيرهم ممّن مضى من الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين، إلى مبلغ أيّامي ومنتهى عصري، عبيد الله عزّ وجلّ، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾. يا محمّد بن عليّ قد آذانا جهلاء الشيعة وحمقاؤهم، ومن دينه جناح البعوضة أرجح منه» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 52، ص 762].

2- معيارية عرض الحديث على القرآن الكريم

من البدهي أنّ المعصوم يدعو إلى القرآن، وهذا ما أكّده الإمام الرضا عليه السلام: أنّ «القرآن كلام الله لا تتجاوزوه ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلّوا» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 2، ص 26]، وفي نصّ آخر قال عليه السلام: «من ردّ متشابه القرآن إلى محكمة هدى إلى صراط مستقيم، ثمّ قال: إنّ في أخبارنا متشابهًا كمتشابه القرآن ومحكمًا كمحكم القرآن، فردوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتّبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا» [عطاردي، مسند الإمام الرضا، ج 1، ص 803].

ولعلّه لهذا السبب - أي قوله عليه السلام "إنّ في أخبارنا متشابهًا كمتشابه القرآن" - ما يفسّر لنا عرض أحد أصحاب الإمام الرضا عليه السلام (وهو يونس بن عبد الرحمن) بعض النصوص الحديثية عليه، إذ قال: «وافيت العراق فوجدت بها قطعةً من أصحاب أبي جعفر (الباقر عليه السلام) ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم، فعرضتها من بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرةً أن تكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام، وقال لي: إنّ أبا الخطّاب كذّب على أبي عبد الله عليه السلام، لعن الله أبا الخطّاب، وكذلك أصحاب أبي الخطّاب، يدسّون في هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أبي عبد الله عليه السلام، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنّا إن تحدّثنا، حدّثنا بموافقة القرآن وموافقة السنّة» [البروجردي، جامع أحاديث الشيعة، ج 1، ص 362].

فهنا نفهم من هذا النص المهمّ أنّ الإمام عليه السلام ينكر بعض الأحاديث لوجود الدسّ والكذب والوضع في النصوص الروائية، والنتيجة الطبيعية هي أن نجد ظاهرة الغلوّ في الدين؛

وذلك لأنّها «من أبرز المشاكل التي واجهت مدرسة أهل البيت عليهم السلام من بعض المندسّين من أصحابه بقصد التشويه والتخريب، فوضعوا من الأحاديث التي رواها الثقات عنه، ونسبوا إليه بعض الآراء التي لا تتّفق مع أصول الإسلام ومبادئه، وبالتالي أظهروا الغلوّ فيه وجعلوه فوق مستوى البشر وأعطوه صفات الآلهة» [الحسني، سيرة الأئمّة الاثني عشر، ج 2، ص 932].

لذلك وضع الإمام الرضا عليه السلام ضابطةً مهمّةً، وهي عرض الخبر أو النصّ على القرآن الكريم والسنّة القطعية الصحيحة وموافقته له؛ ليصون بذلك السنّة النبوية من هذه الآفات الخطيرة.

وهذا التأكيد من الإمام الرضا عليه السلام على محورية القرآن، نجده أيضًا في نصّ آخر، حينما سأله أحد الرواة واسمه أبو قرّة، قائلًا له: «فتكذّب بالروايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إذا كانت الروايات مخالفةً للقرآن كذّبتها» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 69]. وكذلك قوله عليه السلام: «فما ورد عليكم من خبرين مختلفين فأعرضوهما على كتاب الله، فما كان في كتاب الله موجودًا فاتّبعوا ما وافق الكتاب، وما لم يكن في الكتاب فأعرضوه على سنن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم» [المصدر السابق].

وطبقًا لهذا المعيار الأساسي نجد أنّ الراوي الثقة يونس بن عبد الرحمن متشدّد في نقل الحديث، فقد روى الكشّيّ عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن يونس ابن عبد الرحمن، قال ابن عبيد: «إنّ بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرحمن وأنا حاضر، فقال له: يا أبا محمّد، ما أشدّك في الحديث، وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يحملك على ردّ الأحاديث؟ فقال: حدّثني هشام بن الحكم أنّه سمع أبا عبد الله (الصادق عليه السلام) يقول: لا تقبلوا علينا حديثنا إلّا ما وافق القرآن والسنّة أو تجدون معه شاهدًا من أحاديثنا، فإنّ المغيرة بن سعيد - لعنه الله - دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي، فاتّقوا الله ولا تقولوا علينا ما خالف قول ربّنا تعالى وسنّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّا إذا حدّثنا قلنا: قال الله عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» [التستري، قاموس الرجال، ج 11، ص 181].

التطبيقات المستوحاة من القرآن الكريم

ومن التطبيقات التي استوحاها الإمام الرضا عليه السلام من القرآن في جواباته حينما سأله المأمون عن هذه الظاهرة أي الغلوّ، إذ قال له: «يا أبا الحسن بلغني أنّ قومًا يغلون فيكم ويتجاوزون؟ فقال عليه السلام: حدّثني أبي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد بن عليّ، عن أبيه عليّ بن الحسين، عن أبيه الحسين بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا ترفعوني فوق حقّي، فإنّ الله - تبارك وتعالى - اتّخذني

عبدًا قبل أن يتخذني نبيًّا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللهِ﴾» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 2، ص 712].

وكان يستشهد بقول عليٍّ عليه السلام: «وأنا أبرأ إلى الله - تبارك وتعالى - ممّن يغلو فينا ويرفعنا فوق حدّنا كبراءة عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾» [المصدر السابق].

عندما نستنطق هذه الأحاديث نجد أنّ الإمام الرضا عليه السلام استشهد بالقرآن الكريم الذي هو المعيار الأساس في صدق النصوص ومقبوليتها وكذلك بقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أي السنّة الشريفة، وأنّ هذا النبيّ هو بشر، ومقتضى بشريته أن يكون عبدًا مخلصًا لله تعالى، ولا يجب الغلوّ فيه ورفعه فوق حقّه مع عظمته وعصمته صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا نجد تفسيراتٍ للإمام الرضا عليه السلام التي يركّز فيها على نفي الرؤية المادّية الحسّية لله سبحانه وتعالى من خلال القرآن ومن ثمّ يفسّرها بما يتواءم مع العقل، فإنّ المسيح بن مريم وأمّه كانا يأكلان الطعام المادّي فكيف يكونان إلهين؟! وهذا أيضًا ما قد نلمسه في نصّ عن محمد بن الفضيل، قال: «سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربّه عزّ وجلّ؟ فقال: نعم، بقلبه رآه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ لم يره بالبصر، ولكن رآه بالفؤاد» [الصدوق، التوحيد، ص 611]. وفي حديثٍ مع أبي الصلت الهروي، قال: «يا أبا الصلت، إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان، ولا تدركه الأبصار والأوهام» [المصدر السابق، ص 711]، فهنا يستشهد الإمام بالقرآن الكريم لنفي الأمور الحسّيّة كالمكان والبصر عن مقام الذات الإلهية، قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [سورة الانعام: 301].

3- معيارية الأصول الثابتة في الدين

ونقصد بهذا المعيار أو هذه القاعدة أنّ هناك بعض الأصول الثابتة التي لا خلاف فيها (كتوحيد الله وربوبيته أو النبوّة أو المعاد)، فمن يدّعي خلاف هذه الأصول فيما نجده من نصوص روائية، فهذه النصوص تكون مشوبة بالكذب أو الغلوّ في الدين، فيجب أن تضبط النصوص وفق هذا المعيار.

نماذج وتطبيقات

ومن التطبيقات التي تُرصد في تراث الإمام الرضا عليه السلام، والتي نفهم منها أنّه يشدّد النكير على كلّ من يخالف الأصول الثابتة في الدين لا سيّما وحدانية الله وصفاته والبعث والمعاد.

1- النصوص الروائية المخالفة للثابت العقدي (وحدانية الله وصفاته)

وهذا ما نجد في نصّ أو دعاء يعلن الإمام الرضا عليه السلام براءته من كلّ من يخالف الثوابت والأصول العقدية والمسلّمات التي تعدّ الركائز الأساسية في الدين قال عليه السلام: «اللّٰهُمَّ إني أبرأ إليك من الحول والقوّة، فلا حول ولا قوّة إلّا بك، اللّٰهُمَّ إني أبرأ إليك من الذين ادّعوا لنا ما ليس لنا بحقٍّ، اللّٰهُمَّ إنّي أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللّٰهُمَّ لك الخلق ومنك الأمر، وإيّاك نعبد وإياك نستعين، اللّٰهُمَّ أنت خالقنا وخالق آبائنا الأوّلين وآبائنا الآخرين، اللّٰهُمَّ لا تليق الربوبية إلّا بك ولا تصلح الإلهية إلّا لك، فالعن النصارى الذين صغّروا عظمتك والعن المضاهئين لقولهم من بريّتك. اللّٰهُمَّ إنّا عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، اللّٰهُمَّ من زعم إنّا أرباب فنحن منه برآء، ومن زعم أنّ إلينا الخلق وعلينا الرزق، فنحن برآء منه، كبراءة عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى، اللّٰهُمَّ إنّا لم ندعهم إلى ما يزعمون، فلا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما يدّعون ولا تدع على الأرض منهم ديارًا، ﴿**إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجرًا كفّارًا**﴾» [المصدر السابق، ص 711].

وفي نصّ آخر أيضًا: «عن يونس قال: سمعت رجلًا من الطيّارة (الغلاة) يحدّث أبا الحسن الرضا عليه السلام عن يونس بن ظبيان أنّه قال: كنت في بعض الليالي وأنا في الطواف، فإذا نداء من فوق رأسي.. يا يونس، ﴿**إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**﴾ فرفعت رأسي فإذا جبرائيل، فغضب أبو الحسن غضبًا لم يملك نفسه، ثمّ قال للرجل: اخرج عنّي لعنك الله ولعن الله من حدّثك، ولعن يونس بن ظبيان ألف

لعنة تتبعها ألف لعنة كلّ لعنة منها تبلغك إلى قعر جهنم، وأشهد ما ناداه إلّا شيطان، أما إنّ يونس مع أبي الخطّاب في أشدّ العذاب مقرونان، وأصحابهما إلى ذلك الشيطان مع فرعون وآل فرعون في أشدّ العذاب» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 9، ص 332].

وأيضًا ما رويّ عن الإمام الرضا عليه السلام في محاوراته مع المأمون العبّاسي، إذ قال: «من ادّعى للأنبياء ربوبيةً وادّعى للأئمّة ربوبيةً أو نبوّةً أو لغير الأئمّة إمامةً، فنحن منه براء في الدنيا والآخرة» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام ج 1، ص 712].

فقه النصوص

نفهم من ظاهر هذه النصوص أنّ الإمام عليه السلام يبيّن ويوضّح فلسفة البراءة من هؤلاء الغلاة في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأنّ الإلوهية أو الربوبية أو غيرها محصورة بالله وحده لا إله إلّا هو لا معبود سواه، له جميع معاني العظمة والكبرياء في ذاته وأسمائه وصفاته، ومن يدّعي خلاف ذلك بدعاوى وهمية لا واقع لها، فهو في الحقيقة يخالف أصلًا ثابت قطعي وهو التوحيد الخالص المحصور به جلّ شأنه ، وهكذا في النبوة ، فهو أصل موضوعي ثابت في الدين، فكل من يدعي النبوة يدخل في حيّز الغلو، وهكذا لكل من يدّعي الإمامة لغيرهم عليهم السلام ، فالعقلاء وسيرتهم قائمة على هذه الأصول الثابتة في المنظومة الدينية والإسلامية؛ لذلك كان الإمام يغضب بشدّة ويلعن هؤلاء ويتبرّأ منهم أمام الملإ في بعض الأحيان.

2- النص الروائي المخالف للثابت العقدي (المعاد)

في حوار المأمون العبّاسي مع الإمام الرضا عليه السلام حول التناسخ[5]، قال مخاطبًا الإمام عليه السلام: «يا أبا الحسن، فما تقول في القائلين بالتناسخ؟ فقال الرضا عليه السلام: من قال بالتناسخ فهو كافر بالله العظيم، مكذّب بالجنّة والنار» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 2، ص 812].

فقه النص

واضح من هذا النصّ أنّ الإمام عليه السلام يبطل التناسخ من الأساس، بل ومن يتبنّى هذه الرؤية يكون جاحدًا ومنكرًا ومخالفًا لأصل ثابت في الدين وهو المعاد. والإمام أشار الى مصاديق المعاد، بقوله (مكذّب بالجنّة والنار) ففي الجنّة أو النار تعود نفس الأرواح للأجسام،

---

5. التناسخ: عبارة عن تعلّق الروح بالأجسام العنصرية المتعدّدة في هذه الدنيا، فهي تحلّ بعد فناء كلّ جسم بجسم آخر. [انظر: الصافي الكلبايكاني، مجموعة الرسائل، ج 1، ص 310].

فالقائل بالتناسخ وحلول الأجسام في غيرها يجوّز الظلم على الله تعالى، فليس من العدل أن تتناسخ الأرواح فتحلّ في جسم آخر ونطفة أخرى. وبعد هذه الحوارية أذعن المأمون لمقولة الإمام عليه السلام، بقوله: «لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، فوالله ما يوجد العلم الصحيح إلّا عند أهل البيت، وإليك انتهت علوم آبائك فجزاك الله عن الإسلام وأهله خيرًا» [المصدر السابق، ج 2، ص 812]؛ لذلك نجد مشهور علماء الشيعة يبطلون التناسخ، قال الصدوق: «والقول بالتناسخ باطل، ومن دان بالتناسخ فهو كافر؛ لأنّ في التناسخ إبطال الجنّة والنار» [الصدوق، اعتقادات الإمامية، ص 36]. وهناك نصوص أخرى يمكن للقارئ الكريم البحث عنها في مظانّها.

وفي نهاية ما طرحناه من هذه الثوابت العامة والخطوط الرئيسة للإسلام - والتي تتقاطع مع فهمهم للنصوص الدينية العامّة لروح القرآن أو السنّة النبوية أو الثوابت العقدية - ننقل نصًّا مهمًّا يردع ويزجر الغلاة بغلظة كبيرة، وهذا ما نلمسه من سؤال بعض الرواة وهو أبو هاشم الجعفري، قال: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام، عن **الغلاة والمفوضة**(6)، فقال: الغلاة كفّار والمفوّضة مشركون، من جالسهم أو خالطهم أو آكلهم أو شاربهم أو واصلهم أو زوّجهم أو تزوّج منهم أو آمنهم أو ائتمنهم على أمانة أو صدّق حديثهم أو أعانهم بشطر كلمة خرج من ولاية الله عزّ وجلّ وولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وولايتنا أهل البيت» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 2، ص 912].

وفي نصٍّ آخر ولعلّه أشدّ من سابقه أيضًا، بعد أن لعنهم، وصفهم باليهود ونظرائهم، قال عليه السلام: «لعن الله الغلاة، ألا كانوا يهودًا! ألا كانوا مجوسًا! ألا كانوا نصارى! ألا كانوا قدريةً(7)! ألا كانوا مرجئةً(8)! ألا كانوا حروريةً(9)!». ثمّ قال عليه السلام: «لا تقاعدوهم ولا تصادقوهم، وابرؤوا منهم، بريء الله منهم» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 2، ص 912].

فهم مقولة أو نصّ "نزّهونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم"

بعدما تقدّم من المعايير التي تعتبر المناط في قبول النصوص الروائية، فلا بدّ أن نُخضع هذه المقولة لما مرّ من معياري العقل والعرض على القرآن الكريم، والمبادئ الأساسية للدين،

6. نعني بالمفوّضة: أنّ العبد مستقلٌّ بأفعاله، وليس لله تعالى دخالة أو صنيع في هذه الأفعال. والغلاة تقدّم تعريفهم في أوّل المقالة.

7. القدرية: هم القائلون بأنّ الخير والشرّ كلّه من الله تعالى وبتقديره ومشيئته، وليس للإنسان دخالة في الاختيار لأفعاله.

8. المرجئة: وهم الذين قالوا: لا يضرّ مع الايمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

9. الحرورية: هم فرقة من فرق الخوارج، سمّيت بذلك لأنّ أوّل اجتماعهم كان بقرية حروراء قرب الكوفة، وهم ممّن لا يفقهون تأويل النصوص، ويقفون على الظاهر منه، وقد قاتلهم الإمام عليٌّ عليه السلام.

حريّ بنا أن نلقي نظرةً إجماليةً لنصّ قد يحسبه بعضهم أنه يعارض ما ذكرناه، وهو القول: "نزّهونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم".

فهنا يمكن أن نفسّر منطوق هذه النصّ لو صحّت نسبته عن المعصوم عليه السلام بأن نقول: إنّنا تارةً نتحدّث بمقام الإثبات، وتارةً بلحاظ الثبوت.

وأمّا الأوّل (الإثبات)، فمنطوق هذا النصّ يدلّ على أنهم عليهم السلام وصلوا إلى مراتب عالية من الكمال، وأنّها فوق حدّ الإحصاء، ولكنّ هذا لا يعني أنّهم يخلقون أو يُميتون أو غير ذلك، تلك الصفات التي هي لله تعالى، وبمعنى آخر إنّهم عليهم السلام حاملون لمراتب الفضل والكمال، وإنّهم واصلون لمواضع القرب والزلفى من الله تعالى، وتدلّ على أنّ ميزاتهم وصفاتهم في أنفسهم ليست هي صفات الألوهية والربوبية، لكنّ هذا لا يلازم أن يكون الله تعالى قد أوكل إليهم فعلًا (إثباتًا) أمر الخلق والرزق، أو الإماتة والإحياء، وما إلى ذلك، بل يحتاج ذلك إلى أدلّة أخرى تثبت حصوله.

وأمّا في مقام (الثبوت)، فإذا كان المراد بنسبة الخلق إليهم أنّ الله عز وجل هو الذي يفيض الوجود حين إرادة المعصوم، فتكون إرادة المعصوم واقعةً في سلسلة المبادئ والعلل لتعلّق الإرادة الإلهية بوجود المخلوق، ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ فلا إشكال في صحّة ذلك ثبوتًا. [انظر: العاملي، مختصر مفيد، ج 7، ص 35]

ولكن المهمّ هو أن يدلّ الدليل على حصول ذلك بالفعل، وحديث "قولوا فينا ما شئتم" لا يكفي لإثبات هذا الأمر. [المصدر السابق]

وكذلك لو عرضنا هذا النصّ على القرآن الكريم، فروح القرآن العامّة بلحاظ (الإثبات) لم تخبرنا عن أنّ المعصومين عليهم السلام فُوّض لهم الإحياء أو الإماتة أو غير ذلك، وهكذا السنّة الصحيحة، وقد تقدّم من النصوص السابقة المرويّة عن الرسول الأكرم والأئمّة عليهم السلام والتي تنهى عن ذلك بشكل قطعي. هذا فضلًا عن أنّ صيغة هذا النصّ بعينه (**نزّهونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم**) لم نجد له مصدرًا موثّقًا له. نعم، قد ترد له صيغ أخرى مشابهة، كقول عليٍّ عليه السلام: «لا تتجاوزوا بنا العبودية، ثمّ قولوا فينا ما شئتم، ولن تبلغوا، وإيّاكم والغلوّ كغلوّ النصارى، فإنّي بريء من الغالين» [المصدر السابق] وغيرها من النصوص التي ترد في هذا السياق، وفيها من الصحيح والحسن والمعتبر.

ومنطوقها ودلالتها يشير الى أنّهم عليهم السلام فيهم من مراتب الكمال والملكات الفاضلة التي

وصلها أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ما لا يصل لها غيرهم؛ لأنّهم عليهم السلام لا يقاس بهم أحد، وكلّما تكلّم الناس في فضائلهم فإنّهم لم ولن يبلغوا معرفة ما منحهم المولى عزّ وجلّ من فضائل وكرامات، كما نقرأ ذلك في الزيارة الجامعة: «مواليّ، لا أحصي ثناءكم، ولا أبلغ من المدح كنهكم، ومن الوصف قدركم، وأنتم نور الأخيار، وهداة الأبرار» [الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 2، ص 803]. ولكن - كما تقدّم - تؤكّد هذه النصوص على (التنزيه) بمعنى النهي والبُعد عن حالة الغلوّ والبراءة ممّن ينسب لهم أمورًا لم تقع لهم كالربوبية والخلق والإماتة وغير ذلك.

موقف علماء المدرسة الشيعة من الغلاة والمفوّضة

من المعلوم والجليّ أنّ مشهور علماء المدرسة الشيعية يرفضون هذا الاتّجاه من التفكير بشكل قاطع، فالعقيدة الشيعية تتنافى مع هذا الفكر الذي يتضمّن الغلوّ والتفويض المستقلّ عن إرادة الله تعالى، بمعنى الخلق والرزق والإماتة والإحياء؛ وذلك لخطورة ما يمثّله هذا النمط من التفكير الذي يترك آثارًا وخيمةً على الدين والشريعة.

ونجمل هذه الأقوال بما يلي:

1- قال الشيخ الصدوق: «اعتقادنا في الغُلاة والمفوَّضة أَنّهم كفار بالله جلّ جلاله، وأَنّهم شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحروريّة ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلّة، وأنّه ما صغّر الله جلّ جلاله تصغيرهم شيء، قال الله جلّ جلاله: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ**﴾ ثمّ قال: واعتقادنا في النبيّ والأئمّة ... أنّه ما شبّه أمرهم كما يزعم من تجاوز الحدّ فيهم، ثمّ استشهد بنصٍّ نقلناه سابقًا عن الإمام الرضا عليه السلام، وأنه كان يقول في دعائه: اللّهمّ إنّي أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقُلهُ في أنفسنا، اللّهمّ لك الحقّ ومنك الرزق، اللّهمّ أنتَ خالقنا وخالق آبائنا الأوّلين وآبائنا الآخرين، اللّهمّ لا تليقُ الربوبيّة إلّا بكَ، ولا تَصلحُ الإلهيّة إلّا لكَ، اللّهمّ إنّا عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، اللّهمّ مَن زعم أنّنا أربابٌ فنحن منه برآء، اللّهمّ إنا لم ندعهم إلى ما يزعمون فلا تؤاخذنا بما يقولون» [الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، ص 89 و99].

2- قال الشيخ المفيد: «والغُلاة من المتظاهرين بالإسلام، وهم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمّة من ذرّيّته عليهم السلام إلى الألوهيّة والنبوّة، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحدّ، وخرجوا عن القصد وهم ضلّال كفّار» [المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص 131].

3- قال العلّامة المجلسي: «اعلم أنّ التفويض يطلق على معانٍ بعضها منفيٌّ عنهم عليهم السلام، وبعضها مثبتٌ لهم.

فالأوّل: التفويض في الخلق والرزق والتربية والإماتة والإحياء، فإنّ قومًا قالوا: إنّ الله تعالى خلقهم وفوّض إليهم أمر الخلق فهم يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون وهذا يحتمل فيه وجهين:

أحدهما: أن يقال: إنّهم يفعلون جميع ذلك بقدرتهم وإرادتهم، وهم الفاعلون لها حقيقةً، فهذا كفر صريح، دلّت على استحالته الأدلّة العقلية والنقلية، ولا يستريب عاقل في كفر من قال به.

وثانيها: أنّ الله تعالى يفعلها مقارنًا لإرادتهم كشقّ القمر وإحياء الموتى وقلب العصا حيّةً وغير ذلك من المعجزات، فإنّ جميعها إنّما تقع بقدرته سبحانه، مقارنًا لإرادتهم لظهور صدقهم فلا يأبى العقل من أن يكون الله تعالى خلقهم وأكملهم وألهمهم ما يصلح في نظام العالم، ثمّ خلق كلّ شيء مقارنًا لإرادتهم ومشيّتهم، وهذا وإن كان العقل لا يعارضه كفاحًا، لكنّ الأخبار الكثيرة ممّا أوردناها في كتاب "بحار الأنوار" يمنع من القول به، فيما عدا المعجزات ظاهرًا بل صريحًا ، مع أنّ القول به قول بما لا يعلم؛ إذ لم يرد ذلك في الأخبار المعتبرة فيما نعلم، وما ورد من الأخبار الدالّة على ذلك كخطبة البيان وأمثالها، فلم توجد إلّا في كتب الغلاة وأشباههم» [المجلسي، مرآة العقول، ج 3، ص 341].

4- قال الشيخ محمّدحسين كاشف الغطاء: «يجب على العاقل بحكم عقله عند الإمامية تحصيل العلم والمعرفة بصانعه، والاعتقاد بوحدانيته في الألوهية، وعدم شريك له في الربوبية، واليقين بأنّه هو المستقلّ بالخلق والرزق والموت والحياة والإيجاد والإعدام، بل لا مؤثّر في الوجود عندهم إلّا الله، فمن اعتقد أنّ شيئًا من الرزق أو الخلق أو الموت أو الحياة لغير الله، فهو كافر مشرك خارج عن ربقة الإسلام. وكذا يجب عندهم إخلاص الطاعة والعبادة لله، فمن عبد شيئًا معه، أو شيئًا دونه، أو ليقرّبه زلفى إلى الله فهو كافر عندهم أيضًا. ولا تجوز العبادة إلّا لله وحده لا شريك له، ولا تجوز الطاعة إلّا له، وطاعة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام فيما يبلغون عن الله طاعة الله، ولكن لا يجوز عبادتهم بدعوى أنّها عبادة الله، فإنّها خدعة شيطانية، وتلبيسات إبليسية» [كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، ص 912].

5- قال الشيخ محمّدرضا المظفر: «لا نعتقد في أئمّتنا ما يعتقده الغلاة والحلوليون ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾! بل عقيدتنا الخاصّة أنّهم بشر مثلنا، لهم ما لنا وعليهم ما

علينا، وإنّما هم عباد مكرمون اختصّهم الله تعالى بكرامته وحباهم بولايته، إذ كانوا في أعلى درجات الكمال اللائقة في البشر من العلم والتقوى والشجاعة والكرم والعفّة وجميع الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، لا يدانيهم أحد من البشر فيما اختصّوا به. وبهذا استحقّوا أن يكونوا أئمّة وهداة ومرجعًا بعد النبيّ في كلّ ما يعود للناس من أحكام وحكم، وما يرجع للدين من بيان وتشريع، وما يختصّ بالقرآن من تفسير وتأويل. قال إمامنا الصادق عليه السلام: "ما جاءكم عنّا ممّا يجوز أن يكون في المخلوقين، ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردوه إلينا، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أن يكون في المخلوقين فأجحدوه ولا تردوه إلينا"» [المظفر، عقائد الإمامية، ص 47].

6- قال الميرزا جواد التبريزي: «لو كان الغلوّ باعتقاد أنّه قد فوّض إلى عليٍّ أو الأئمّة عليهم السلام أمر الخلق والرزق والنعمة والبلايا وغيرها من الأمور الراجعة إلى التكوين والتشريع كما يظهر ذلك من بعض الأشعار التي زعم أنّها مدائح لهم عليهم السلام، فإنّ اعتقاد التفويض أو التشريك بذلك خلاف الكتاب العزيز والسنّة، فهو مع الالتفات بأنّه إنكار للكتاب والسنّة موجب للكفر لا مطلقًا، وأمّا الالتزام بأنّهم شفعاء عند الله، وأنّ العباد يتوسّلون بهم إلى الله، ويجعلونهم شفعاءهم عنده جلّ وعلا، فهو المذهب الحقّ الصحيح نرجو أن نحيا عليه ونموت عليه، ونحشر عليه إن شاء الله تعالى» [الميرزا التبريزي، تنقيح مباني العروة، ج 2، ص 602].

7- قال السيّد السيستاني في وصيّتيه للخطباء والمبلّغين: «وليحذر المبلّغون والشعراء والرواديد أشدّ الحذر عن بيان الحقّ بما يوهم الغلوّ في شأن النبيّ وعترته (صلوات الله عليهم)، والغلوّ على نوعين: إسباغ الصفات الألوهيّة على غير الله سبحانه، وإثبات أمور ومعانٍ لم تقم حجّة موثوقة عليها، ومذهب أهل البيت عليهم السلام خالٍ عن الغلوّ بنوعيه، بل هو أبعد ما يكون عنه، وإنّما يشتمل على الإذعان للنبيّ وعترته (صلوات الله عليهم) بمواضعهم التي وضعهم الله تعالى فيها من دون زيادة ولا إفراط، بل مع تحذّر في مواضع الاشتباه، وورعٍ عن إثبات ما لم تقم به الحجّة الموثوقة، وإنّما المتّقي من لا يغلو فيمن يحبّ كما لا يحيف على من يبغض، ولا يصحّ بناء هذه المعاني على مجرّد المحبّة، وتصديق كلّ من زاد شيئًا، والإذعان له بمزيد الإيمان، فإنّ ذلك يؤدّي إلى المزايدة في أمر الدين بغير حجّة، وحدوث البدع، وطمع الجاهلين، وترؤّس أهل الضلالة، وتراجع المتورّعين العاملين بالحجّة والمتوقّفين عند الشبهة، وذلك يمحق الدين ويرتدّ ارتدادًا معاكسًا بتفريط آخرين، والزيادة في العقيدة بغير

حجّة موثوقة على حدّ النقصان فيها ممّن قامت عليه الحجّة عليها، ومن زاد اليوم شيئًا بغير حجّة زيد عليه غدًا حتّى أنّه ليُتّهم بالتقصير والقصور، فلزوم الحجّة والميزان أحمد وأسلم» [السيستاني، وصايا المرجعية الدينية العليا للخطباء والمبلّغين بمناسبة شهر المحرّم الحرام، عام 1441 هـ].

إذن نفهم ممّا تقدّم أنّ الغلوّ ظاهرة لا تمثّل الدين وهي بعيدة كلّ البعد عن روح الإسلام، وقد انتشرت هذه الظاهرة قبل عصر الإمام الرضا عليه السلام، وقد نقلنا بعض من النصوص عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليٍّ عليه السلام، وقد امتدّت هذه الظاهرة إلى عصره عليه السلام وعالجها بشكل فعال، وقد جاءت كلمات علماء الشيعة الإمامية متوائمة مع ما ذكره الإمام الرضا عليه السلام كما تقدّم في هذه البحوث.

نتيجة البحث

بعد هذه الجولة العلمية في البحث والتنقيب عن ظاهرة الغلوّ، اتّضح أنّها كانت متأصّلةً في نفوس بعض من لا يفقه الدين بشكل موضوعي، ووجدنا أنّ الغلوّ هو نتيجة طبيعة لما نراه ممّن يضعون الحديث ويدسّونه ويجعلونه، بل ويكذّبون ويتقوّلون على النبيّ وأهل بيته عليهم السلام بما لم يقولوا، وربّما كان أيضًا للانفعال العاطفي دور في ذلك، ولا برهان ودليل على ما يتفهون به وينقلونه لعوامّ الناس، فكان التحذير على لسان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بعده أئمّة الهدى، ولا سيّما الإمام الرضا عليه السلام، فأعطى بعض العلاجات التي قد تحدّ من هذه الظاهرة، فكان لمعيارية العقل، والذي كان يركّز عليه صلوات الله عليه بشكل كبير، فأعطى له الحجّية، وجعله المنقذ للإنسان من الضلال، بل وجعله قرينًا وصديقًا وخلًّا، كما تقدّم في النصوص الواردة عنه عليه السلام، وهكذا أعطى لمعيارية القرآن الكريم الأهمّية البالغة؛ لأنّ القرآن معصوم من الخطإ ولا يأتيه الباطل مطلقًا، وهكذا معيارية الثوابت والمبادئ العقدية في الإسلام، فهذه المعايير لها الدور الكبير في ضبط النصوص بشكل موضوعي، وكان لعلماء الشيعة الكلمة الفصل أيضًا في تحييد هذه الظاهرة وتقييدها، من خلال الكلمات التي تحذّر الشيعة وغيرهم من المسلمين، من عواقب سلوك هذا الطريق المنحرف عن جادة الصواب، والتي تكون وخيمة على المنظومة الإسلامية بشكل عام والشيعية بشكل خاصّ. وما أروع وأدقّ ما حذّر منه السيّد السيستاني -كما تقدّم- من ارتكاب هذا الفعل (أي الغلوّ) فهو يمحق الدين ويرتدّ ارتدادًا معاكسًا بتفريط آخرين، والزيادة في العقيدة بغير حجّة موثوقة على حدّ النقصان فيها ممّن قامت عليه الحجّة عليها، ومن زاد اليوم شيئًا بغير حجّة زيد عليه غدًا، فلا بدّ من لزم الجادّة الوسطى والمستقيمة والمعتدلة.

قائمة المصادر

ابن سيده، عليّ بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2000 م.

ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1، 1420 هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، الناشر: أدب حوزة، 1405 هـ.

ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، مكتبة الإعلام الإسلامي، 1404 هـ.

الأربلي، أبو الحسن علي بن عيسى، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، دار الأضواء، بيروت.

جوادي آملي، عبد الله، عليّ بن موسى الرضا والقرآن الحكيم، دار الصفوة، بيروت.

البروجردي، حسين علي، جامع أحاديث الشيعة، المطبعة العلمية، قمّ المقدسة، 1399 هـ.

التستري، محمدتقي، قاموس الرجال، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، قمّ، الطبعة الأولى، 1419 هـ.

الحسني، هاشم معروف، سيرة الأئمّة الاثني عشر، المكتبة الحيدرية، 1428 هـ.

الدارمي، عبد الله، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق، 1407 هـ.

الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، دار الحديث، قم المقدسة، ط 1، 1416 هـ.

السيستاني، علي، وصايا المرجعيّة الدينيّة العليا للخطباء والمبلّغين بمناسبة قرب حلول شهر المحرّم الحرام عام 1441 هـ: https://www.sistani.org/

الشهرستاني، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، 1404 هـ.

الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ، الخصال، جماعة المدرسين، قمّ، 1403 هـ.

الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، الاعتقادات في باب الامامية، دار المفيد، بيروت، ط 2، 1414 هـ.

الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، عيون أخبار الرضا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1404 هـ.

الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قمّ المقدّسة.

الطباطبائي، محمدحسين، تفسير الميزان، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قمّ المقدّسة.

الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي، الاحتجاج، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، 1386 هـ.

الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم المقدسة، ط 1، 1414 هـ.

العاملي، جعفر مرتضى، مختصر مفيد، المركز الإسلامي للدراسات، ط 1، 1426 هـ.

عبده، محمد، نهج البلاغة، دار الذخائر، قم، ط 1، 1412 هـ.

عطاردي، عزيز الله، مسند الإمام الرضا، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، 1406 هـ.

المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، تصحيح اعتقادات الإماميّة، دار المفيد، بيروت، ط 3، 1414 هـ.

غفاري، علي أكبر، دراسات في علم الدراية، جامعة الإمام الصادق عليه السلام، ط 1، 1369 هـ.

كاشف الغطاء، محمدحسين، أصل الشيعة وأصولها، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسّسة الإمام عليّ عليه السلام.

الصافي الكلبايكاني، مجموعة الرسائل، مؤسّسة الإمام المهديّ عليه السلام، ط 1، 1404 هـ.

الكليني البغدادي، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، تعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 5، 1363 ش.

المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1403 هـ.

المظفر، محمدرضا، عقائد الإمامية، انتشارات أنصاريان، قمّ المقدسة.

مغنية، محمدجواد، في ظلال نهج البلاغة، انتشارات كلمة الحقّ، ط 1، 1427 هـ.

الميرزا التبريزي، جواد، تنقيح مباني العروة، دار الصديقة الشهيدة عليها السلام، ط 2، 1428 هـ.

النوري الطبرسي، حسين بن محمدتقي، مستدرك الوسائل ومستنبط الوسائل، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط 1، 1408 هـ.